وعد بلفور وتجسيد فكرة الدولة الحاجزة

الأستاذ غانم بودن، جامعة ابن خلدون تيارت

ghanembouden@gmail.com

ملخص:

تتميز منطقة المشرق العربي بأهمية استراتيجية واقتصادية وحضارية كبيرة جعلتها محل الأطماع التوسعية للقوى الأوربية المختلفة، ومنها فلسطين ذات الموقع الحيوي في الجنوب الغربي لبلاد الشام، غربي آسيا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وهي تمثل صلة الوصل بين قارتي آسيا وإفريقيا، ونقطة التقاء جناحي العالم الإسلامي، لذلك خضعت لتنافس استعماري وتواطؤ دولي صاحبهما تخاذل عربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أفادت منه الحركة الصهيونية التي بدأت تتطلع إلى تنفيذ مشروع الاستيطاني اليهودي منذ الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي.

فقد كانت الثورة الفرنسية بمبادئها العدالة والحرية والمساواة بمثابة النسيم الذي هبّ على اليهود فأنعشهم، وأخرجهم من العزلة التي كانت تحيط بهم، فأخذوا يزحفون إلى مراكز النفوذ والسيطرة في دوائر المال والأعمال مستغلين أسطورة الاضطهاد في حشد اليهود في مختلف مناطق العالم لإنشاء كيان سياسي خاص بهم بدعم فكرة القومية اليهودية الصهيونية لتجد لها مكانا بين القوميات التي انتشرت في أوربا، وصعّبت من عملية اندماج اليهود فيها لتنجح مساعيهم في حصولهم على وعد بلفور 02 نوفمبر 1917 الباطل الذي جسّد مظهرا من مظاهر التحالف الامبريالي الانجليزي الصهيوني، في إطار المصالح المشتركة الاستراتيجية والاقتصادية بالنسبة للاستعمار الانجليزي، وتحقيق مشروع الاستيطان الصهيوني بفلسطين.

الكلمات المفتاحية: الاستيطان الصهيوني، المصالح الاستعمارية، وعد بلفور، فلسطين، التحالف.

Abstract: The Arab Mashreq region is characterized by great strategic, economic and civilization importance, which has made it the place of expansionist ambitions of the various European powers, including Palestine with a vital location in the southwest of the Levant, west Asia on the eastern coast of the Mediterranean and the link between the two continents of Asia and Africa , Which was subjected to colonial competition and international collusion accompanied by Arab backwardness during the second half of the nineteenth century and the beginning

of the twentieth century benefited from the Zionist movement that began looking forward to the implementation of the Jewish settlement project since the French Revolution at the end of the eighth century My evil.

The French Revolution, with its principles of justice, freedom and equality, was the breeze that inspired the Jews, revived them, and drove them out of the isolation that surrounded them. They took to the centers of influence and control in the circles of finance and business, exploiting the myth of oppression in mobilizing Jews in various regions of the world to establish their own political entity with the support of The idea of Jewish Zionist nationalism to find a place among the nationalities that spread in Europe, and made it difficult for the integration of Jews to succeed in their efforts to obtain the Balfour Declaration 02 November 1917 False, which embodied a manifestation of the Anglo-Zionist imperial alliance, The benefit of the common economic strategy and for the colonization of England, and the achievement of the Zionist settlement project in Palestine.

Keywords: Zionist settlement, colonial interests, Balfour Declaration, Palestine, Alliance.

مقدمة:

إن مكانة فلسطين التاريخية والحضارية والاستراتيجية والاقتصادية جعلت مُنظّري الفكر الصهيوني يركزون عليها معتبرين الصهيونية قضية مواصلات إذ توجد -في نظرهم- أرض بدون شعب، ويوجد شعب بدون أرض و"لا يتعلق الأمر إلا بجمعهما"، فأُتخذ من هذه القضية شعارا لدفع الدول الكبرى لدعم هذا المشروع الاستيطاني الصهيوني منذ نهاية القرن التاسع عشر، فالتقت المصالح الاستعمارية خاصة البريطانية منها بالمصالح الصهيونية حيث تستخدم الأولى الأخيرة كوسيلة لحماية مصالحها في المنطقة، وكدولة حاجزة بين شقي الوطن العربي تضمن استمرار نفوذها وتجزئته من خلال إصدار وعد بلفور الذي يعتبر من أكبر الجرائم التاريخية التي ارتكبتها الامبريالية البريطانية في حق الشعب الفلسطيني منذ مائة عام.

1- المصالح البريطانية في المنطقة العربية:

منذ استيلاء بريطانيا على الهند في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتحول الهند إلى أهم جزء في النظام الاقتصادي الإنجليزي أصبح الطريق البحري المؤدي إلى الهند ومحيطه يشكل أهمية استراتيجية بالنسبة لإنجلترا، ومن ثم هدفت السياسة الخارجية الإنجليزية إلى أن يكون هذا الطريق في أيد

أمينة، كما هدفت إلى توفير الأمن فيه، ولذلك كانت سياسة إنجلترا تدعم حماية وحدة أراضي الدولة العثمانية واستقلالها، إذ كانت الدولة تمتلك أراضي منطقة الشرق الأوسط التي يمر بها الطريق المؤدي إلى الهند. (أوزدمير، ح. 2013: 171)

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر توسّعت الرأسمالية، وتعاظمت الأطماع والضرورات الامبريالية، وبات من الواضح أن ثمة حاجة امبريالية لتوسيع السيطرة على مناطق واستعمارها، وذلك للسيطرة على أسواق جديدة والحصول على مواد خام رخيصة، (المسيري، ع. 1982: 35) والتي تعكس حقيقة الاستعمار التي تمثل تدويل المجتمعات الغربية لمشاكلها بالشكل الاستعماري، وبدأت بريطانيا تحس بتهديد مصالحها منذ حملة نابليون بونبارت على مصر سنة 1798 التي لفتت الأنظار إلى مدى ضعف الدولة العثمانية، وفتحت شهية الاستعمار إلى اقتسام ممتلكاتها، حيث أصدر دعوة رسمية لليهود لتحقيق آمالهم وإقامة كيانهم على أرض فلسطين، وقد نشر دعوته أثناء حصاره على عكا في 20 أفريل 1799. (صالح، م. 2012: 26) وكان يهدف من وراء تأييد المشروع الصهيوني إلى إيجاد حاجز مادي بشري يفصل بين مصر وسوريا، واستغلال ذلك في تسهيل وتدعيم الاحتلال الفرنسي لكل منهما، كما كان نابليون يهدف إلى تهديد مصالح بريطانيا من خلال إغلاق طريق مواصلاتها المؤدي إلى الهند.

وبعد هزيمة فرنسا في المنطقة على يد الانجليز تخلت عن تبني الحلم اليهودي، ورأت بريطانيا في تبنيه توافقا مع مصالحها في المنطقة العربية خاصة بعد توسع محمد علي في سوريا الذي كان بداية لقاء بين المصالح البريطانية في الشرق وتوطين اليهود في فلسطين، فكانت تهتم بضرورة تأمين مواصلاتها إلى الهند عن طريق استمرار نفوذها في بلاد الشام، لذا اقتضت مصالحها الاستعمارية إيجاد شعب بديل في فلسطين يتوافق وجوده مع مصالحها. (حلاق، ح. 1978: 46)

كان هناك تنافس بين الدول الأوربية في زيادة نفوذ كل منها، وحماية مصالحها في أراضي الدولة العثمانية خاصة عندما قررت الأخيرة سنة 1830 منح الامتيازات لرعايا إنجلترا وهولندا وروسيا وبروسيا وأمريكا بعد ما كانت فرنسا مستفيدة من هذه الامتيازات منذ سنة 1535، (أوزدمير، ح. 2013: 162). وازداد التنافس بعد حروب محمد علي وتسوية 15 جويلية 1840 في لندن التي أحدثت انقلابا في الأوضاع السياسية في منطقة الشرق، وفتحت عهدا جديدا للنشاط الأوربي الاستعماري فيما بعد لا سيما بعد انكفاء محمد علي مما أحدث فراغا سياسيا وعسكريا في المنطقة، نشطت على إثره السياسات العسكرية والاقتصادية والدينية للدول الأوربية. (حلاق، ح. 1978: 53-54)

وعندما تمت لبريطانيا السيطرة على قبرص سنة 1878، وتمكنت بدسائسها ونشاطها من احتلال مصر سنة 1882 والسودان وسواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية بما فيها سواحل الخليج العربي، (دروزة، م. 1959: 5) أصبحت الدولة الاستعمارية الوحيدة التي لها قواعد شرقي البحر المتوسط، وفضلا

عن الخلفيات الدينية والتاريخية، فقد أصبحت تنظر إلى فلسطين في ضوء التنافس الاستعماري على المنطقة، وفى ضوء حاجتها لحماية الجناح الشرقي لقناة السويس التي أصبحت الشريان الحيوي للمواصلات البريطانية خصوصا إلى الهند. (صالح، م. 2012: 26)

ولذلك سعت بكل الوسائل لبسط سيطرتها على المناطق الواقعة شرق السويس بحجة حماية طرق مواصلاتها إلى الهند، والهدف الرئيس وراء السيطرة البريطانية على فلسطين يكمن في موقعها الاستراتيجي، فهي تعتبر المخفر الشرقي ضد أي تهديد محتمل لقناة السويس، ويمكِّن بريطانيا من السيطرة المطلقة على خليج السويس والعقبة والبحر الأحمر مما يعطي بريطانيا نفوذا في غرب الجزيرة العربية. (خلة، ك. 1982: 37)

ففي أعقاب احتلالها لقبرص ومصر أخذت بريطانيا تسعى جاهدة لإقامة أنظمة حكم موالية لها في منطقة شرق البحر المتوسط تقوم بدور الحارس الأمين لصالحها الاستعمارية، وتأمين شريانها الحيوي الموصل لمستعمراتها في شبه القارة الهندية. (محمود، أ. 1984: 138) وحول أهمية المنطقة في الحسابات الاستراتيجية صرّحت صحيفة ستوندار (Stondart):"بأن جزيرة العرب يجب أن تكون تحت حماية الإنجليز، وأنه من الطبيعي أن تكون إنجلترا صاحبة المدن الإسلامية المقدسة، فبدأت تسيطر على اليمن وتثير القبائل ضد السلطة العثمانية، وتعارض إقامة قواعد للأساطيل الفرنسية والألمانية في البحر الأحمر." (عبد الحميد، 1979: 134-135)

فكان الهدف الحقيقي للإنجليز هو إقامة منطقة نفوذ إنجليزية تصل إلى مصر وساحل البحر الأبيض المتوسط، عن طريق الهند وإيران والبصرة وبغداد والجزيرة وفلسطين. (أوزدمير، ح. 2013: 200) ولتنفيذ هذا الهدف قام بعض الضباط الإنجليز بزيارة بلاد ما بين النهرين لدراسة الوضع في شط العرب باعتباره مفتاح لبلاد ما بين النهرين سنة 1901 محاولين إنشاء خط حديدي يربط وادي النيل بخليج إيران. (عبد الحميد، 1979: 140)

2- الدولة الحاجزة وتقاطع المصالح الاستعمارية بالمصالح الصهيونية:

كانت مأساة فلسطين نتيجة لالتقاء الاستعمار مع الصهيونية، (دروزة، م. 1959: 5) حيث تلاحمت العلاقات الاستعمارية الصهيونية، والخدع الغربية المساندة للحركة العنصرية، صاحبها تراخٍ في التعبئة السياسية في الصفوف العربية والإسلامية استغلته الدول لتنفيذ مشاريعها الامبريالية خاص إنجلترا التي غيّرت من سياستها تجاه الدولة العثمانية، وتخلت عن حماية استقلالها في أعقاب الحرب الروسية العثمانية (1877-1878) إذ كانت إنجلترا ترغب في الاستيلاء على منطقة الشرق الأوسط لحماية طريق الهند ومنع توسع روسيا نحو الجنوب. (أوزدمير، ح. 2013: 171)

وكان ضعف الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين جعل الأوربيين يفكرون بطريقة تضمن ألا تقوم بعد ذلك للعالم الإسلامي قائمة، وألا تحل محل العثمانيين دولة مسلمة جديدة، تبعث الحيوية والنهضة فيهم، فكانت فكرة الدولة الحاجزة، التي توافقت مع فكرة حل المشكلة اليهودية، ومع فكرة حماية الجناح الشرقي لقناة السويس. (صالح، م. 2012: 25) وفي المقابل كان اليهود يدركون أن البريطانيين يشعرون برعب شديد من إنشاء دولة عربية موحدة تضم مصر وفلسطين وبقية أنحاء الشام، فتهدد طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها، وتكرر تجربة محمد علي الذي أنشأ دولة عربية، دفع الأوربيون ثمنا باهظا من دمائهم وأموالهم حتى استطاعوا تحطيمها، (عيسى، ص. د ت: 44) فكانت فلسطين في الاستراتيجية الامبريالية تشكل حائلا بريا يمنع تكرار هذه التجربة، وتحفظ مصالح بريطانيا في المنطقة، وتحمي طرق مواصلاتها الأهم (قناة السويس). (عيسى، ص. د ت: 44)

ولذلك عملت بريطانيا على الاستفادة من ضعف الدولة العثمانية في ظل الصراع الدولي على اقتسام أملاكها فاستغلت المشكلة اليهودية لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية والاستراتيجية ففتحت أول قنصلية لها في القدس سنة 1838، وفي أول رسالة لنائب القنصل في القدس طلبت الخارجية البريطانية منه توفير الحماية لليهود، وظلت تلك القنصلية مركزا للدفاع عن مصالح اليهود حتى نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914، (صالح، م. 2012: 26) فتعززت المصالح المشتركة بين النزعة الامبريالية البريطانية والمصالح الصهيونية التي ستكون وسيلة البريطانيين في خدمة مشروعهم التوسعي.

وكان رئيس وزراء بريطانيا ذو الأصل اليهودي بنجامين دزرائيلي من أصحاب فكرة إقامة دولة يهودية في فلسطين، وذكر سنة 1851 أنها غنية بالخيرات الطبيعية التي لا حد لها، وأنها تحتاج إلى مزارعين مع توفير الحماية لهم (أوزدمير، ح. 2013: 116) كتمهيد لإنشاء مستعمرات في المنطقة العربية بداية بمصر التي التقت فيها المصالح البريطانية مع اليهود سنة 1876 عندما تراكمت الديون على الخديوي اسماعيل (1830-1895) ومحاولته بيع أسهم مصر في قناة السويس، ونشب صراع بين فرنسا وبريطانيا للحصول على الأسهم فتقدم دزرائيلي وطلب من ليونيل روتشلد (1808-1879) قرضا فوافق على ذلك وغرست بريطانيا أقدامها على شاطئ القناة، (عيسى، ص. د ت: 63) والملاحظ أن دزرائيلي أتم الصفقة لا كتوظيف مالي أو كصفقة تجارية وإنما كعملية سياسية. (حلاق، ح. 1978: 58)

ثم بدأت بريطانيا تستولي على الأراضي الاستراتيجية الخاضعة للدولة العثمانية بعد ظهور ألمانيا على الساحة بوصفها قوة مؤثرة، ووضوح ضعف الدولة العثمانية إلى حد كبير، إذ كان استيلاؤها على جزيرة قبرص مؤشرا مهما يُظهر بداية هذه المرحلة، وقد طُرح على الساحة آنذاك مشروع توطين اليهود في فلسطين من قبل أوليفنت النائب السابق في حزب المحافظين الإنجليزي على دزرائيلي رئيس الوزراء الذي

رآه مناسبا. (أوزدمير، ح. 2013: 171) وبعد احتلال مصر سنة 1882 وقف اليهودي البريطاني ادوارد كوزليت (Edward cozlette) يقول: "إن احتلال مصر قد وحّد بين مصالح الامبراطورية في الشرق وبين مصالح اليهود في فلسطين"، (حلاق، ح. 1978: 61) وقال حاييم وايزمان ذات مرة أنه" لو لم توجد فلسطين لكان من الضروري خلقها من أجل مصلحة الإمبريالية". (المسيري، ع. 1982: 35)

فاتصل صوت اليهود بالتجارة، واشتبكت مسألة القروض بمطامع المستعمرين في أقطار الدولة العثمانية، فلم ينظر الأوربيين إلى مطالب اليهود كأنها مطالب منفصلة تعنيهم وحدهم، ولكنهم جعلوها من الوسائل المعول عليها في خدمة السياسة والاستعمار، (العقاد، ع. 2012: 15) ومن المعروف تاريخيا أن العلاقة بين الصهيونية والاستعمار علاقة وثيقة وقديمة قدم الصهيونية، إذ أنها علاقة مصلحيه تقوم على تلاقي الأهداف والمصالح والمخططات، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله تعالى :"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين". (سورة المائدة، الآية 51) ففكرة الاستيطان اليهودي وتطورها كانت بمثابة امتداد لسياسة التوسع الامبريالي الغربي لتصبح بعد نضوجها فيما بعد أداة من أدواته في الشرق العربي تؤمّن مصالحه، وتحرس مواقعه، وكانت بريطانيا هي التي فازت بهذه الأداة سنة 1917. (محمود، أ. 1984: 199)

وحاولت بريطانيا استخدام اليهود للحفاظ على مستعمراتها، وتأمين طرق مواصلاتها، والحد من النفوذ الفرنسي فقد كان لويد جورج يقول في جلساته الخاصة أن ترك الأماكن المقدسة في فلسطين تحت رحمة فرنسا يضرب نفوذ بريطانيا في الصميم، ويقول البريطاني اليهودي إيدوين صموئيل مونتاجو أن لويد جورج لم يكن يكترث باليهود، ولا يهمه ماضيهم أو مستقبلهم، ولم تكن المشكلة التي يسعى لحلها مشكلتهم، ولكنه كان يسعى لحل مشكلة الامبراطورية. (عيسى، ص. د ت: 74) والحقيقة أن إنجلترا كانت تهتم في الدرجة الأولى بمصالحها الاقتصادية في المنطقة، وكانت ترغب في استخدام العنصر اليهودي ورقة رابحة من أجل التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية. (أوزدمير، ح. 2013: 170)

وعندما تأسس المشروع الصهيوني، وظهرت فكرة الدولة الحاجزة فإنها كانت تخدم - بلا شك - مختلف الدوافع والخلفيات الدينية والحضارية والسياسية والاستراتيجية، وأصبحت تتخذ أبعادا عملية يمكن تنفيذها في ضوء التدهور العثماني المتسارع، (صالح، م. 2012: 26) وفي ضوء تصاعد الخطر الألماني ورغبة ألمانيا في إقامة كيان يهودي سياسي على شكل دولة تحت السيادة العثمانية، كضرورة استراتيجية على الصعيد العسكري للدفاع عن مصالح دول الوسط في منطقة الشرق العربي، (محمود، أ. 1984: 188) مما جعل بريطانيا تكثف من جهودها لإرضاء الحركة الصهيونية وتأمين مصالحها في مطلع القرن العشرين.

- مؤتمر كامبل بانرمان الاستعماري 1907 والدولة الحاجزة:

كان هذا المؤتمر موجّه لتفكيك الدولة العثمانية، ومحاولة لإيجاد وطن يحمي اليهود برعاية بريطانيا لاستغلالهم في إتمام مشروعها التوسعي، وتوصل المؤتمر إلى أن الخطر الحقيقي على الدول الاستعمارية يكمن في المناطق العربية بعد اليقظة، وأبرز أهميتها كنقطة التقاء بين الشرق والغرب، وبيّن خطورة سكانها لما تجمعهم من عوامل مشتركة (اللغة، التاريخ، الدين، الهدف والآمال)، وهذا ما يضرب المصالح الاستعمارية فدعا إلى إيجاد التفكك والتجزئة، وإنشاء دويلات مصطنعة تابعة للدول الاستعمارية، وأكد على فصل الجزء الأسيوي من المنطقة العربية عن الجزء الإفريقي، وضرورة إقامة الدولة الحاجزة إذ أن إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوربا بالعالم القديم ويربطهما معا بالبحر المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوربية. (حلاق، ح. 1978: 222-223)

وكان أفضل من ينفذ هذا المشروع هم اليهود، وقد هدف المشروع الغربي من إنشاء فكرة الدولة الحاجزة إلى غرس كيان غريب في قلب العالم الإسلامي، ويفصل جناحه الأسيوي عن جناحه الإفريقي يمنع وحدته، ويضمن ضعفه وتفككه، إذ أن استمرار مثل هذا الكيان مرتبط بذلك، وسيسعى هذا الكيان بالتالي لضرب أي نمو حضاري قوي في المنطقة، وسيشغل العالم الإسلامي بمشكلة طويلة معقدة تستنزف طاقته وجهوده، وتبقيه إلى أبعد مدى ممكن في فلك التبعية والضعف والحاجة للعالم الغربي وقواه الكبرى، وكما أن هذا الكيان سيكون بحاجة إلى دعم الغرب لضمان استمراره، فإن الغرب كذلك سيكون بحاجة إليه لضمان ضعف العالم الإسلامي وتفككه وتبعيته، وبذلك ينشأ بينهما تحالف يهودي صهيوني غربي صليبي لا ينفصم، وهنا تكمن أهمية أن يفهم المسلمون أن هذا المشروع موجه ضد كل مسلم وآماله في الوحدة والنهضة والتقدم وليس ضد الفلسطينيين وحدهم. (صالح، م. 2012: 25)

وقد كان التقرير بمثابة الضوء الأخضر للسياسة البريطانية والحركة الصهيونية في انتزاع فلسطين من المنطقة العربية لخلق نواة استعمارية تؤمّن استمرارية النفوذ الاستعماري في المنطقة بإقامة دولة عنصرية غريبة فيها بعد تصفية الدولة العثمانية وبالضرورة ألمانيا معها. (حلاق، ح. 1978: 223)

- وعد بلفور وضمان المصالح البريطانية في ظل التنافس الاستعماري:

يعتبر وعد بلفور قصة الصهيونية في مرحلة من مراحلها، وهي قصة حلقة من حلقات المؤامرة الاستعمارية لتمزيق الصف العربي، ومنح قطر منه للصهاينة يقيمون على أرضه دولة حاجزة تحول بين وحدة المشرق العربي والمغرب العربي، (عيسى، ص. د ت: 13) كما مثّل وسيلة بريطانية للحد من المنافسة الفرنسية والألمانية والروسية على أملاك الدولة العثمانية، وتعززت العلاقة البريطانية الصهيونية منذ إنشاء الوكالة الصهيونية وانعقاد مؤتمرها الأول سنة 1897 حيث اعتبرت فاتحة العمل السياسي المنظم

لتأسيس الدولة اليهودية باتصال هرتزل بالدول الكبرى خاصة بريطانيا لتبني المشروع الصهيوني في ضوء المصالح والفوائد التي يمكن أن يجنيها الغرب الاستعماري. (صالح، م. 2012: 27-28)

ومثّل تدخل القوى الأوربية التي لها مصالح مختلفة في هذه المنطقة العربية أهم عناصر التنافس على فلسطين والصراع بين القومية العربية والقومية اليهودية، إذ أن بعض الدول الغربية وعلى رأسها انجلترا لم تتوان عن دعم هذين التيارين دون التفكير في تعارض الصهيونية مع القومية العربية في المستقبل، واستغلت الحركات القومية الانفصالية عن طريق الوسائل الدبلوماسية الخارجية، لتتمكن من احتلال منطقة الشرق الأوسط التابعة للدولة العثمانية، ووفرت الحماية لهذه الحركات، وأقامت مناطق نفوذ داخل الدولة العثمانية عن طريق العناصر التي تتعاون معها، وهيأت من خلالها مناخا يمكنها من تقاسم ميراث الدولة العثمانية فيما بينها بعد تقسيم الدولة العثمانية. (أوزدمير، ح. 2013: 145)

- دوافع إصدار وعد بلفور:

في ظل التنافس الدولي سارعت بريطانيا إلى احتواء اليهود خاصة بعد اتصالهم بدول الوسط أثناء الحرب العالمية الأولى أين ساعدتهم ألمانيا والنمسا عند الباب العالي لتحقيق مطمعهم في فلسطين، (العقاد، ع. 2012: 17) واعترف لويد جورج بأن ما حفّز بريطانيا على إصدار الوعد هو وجود معلومات بأن قيادة أركان الجيش الألماني في سنة 1916 ألحت على الأتراك أن يُلبوا مطالب الصهيونيين في فلسطين، وأن الحكومة الألمانية كانت تبذل مساعٍ جدية للسيطرة على الحركة الصهيونية، (خلة، ك. 1982: 58) فكان كسب الحركة الصهيونية إلى جانب الحلفاء كي تقوم بدور المخرّب في ألمانيا والدول المتحالفة معها. (ياغي، إ. 1995: 157)

كما هدف إلى ضرب الثورة الروسية وكسب يهود روسيا حيث تخوف الإنجليز من غزو روسي للشرق الأوسط من الشمال، (خلة، ك. 1982: 58) وكان حاييم وايزمن قد بيّن أهمية فلسطين لبريطانيا بعد الحرب في مقابلة له مع لويد جورج وهربرت صموئيل في ديسمبر 1914 مبيّنا أن وجود اليهود فيها يستطيع أن يحجز النفوذ الفرنسي والروسي. (عيسى، ص. د ت: 49) فقد كانت فرنسا تمد نظرها إلى الشام وفلسطين وهذا ما يُفسد المشروع البريطاني، فالعامل الصهيوني في الصراع الأنجلو فرنسي في الشرق الأوسط لم يغب عن ذهن واضعي مخططات المصالح الاستعمارية البريطانية إذ قصدت من إدخال العامل الصهيوني في لعبة المصالح الاستعمارية أن تقضي على كل أمل لفرنسا في المشاركة في الإدارة الدولية للمنطقة البنية (فلسطين) في اتفاقية سايكس بيكو. (خلة، ك. 1982: 60)

وكشفت وثائق الخارجية البريطانية عن مذكرة كتبها الوزير البريطاني هربرت صموئيل في مارس 1915 جاء فيها: أن الامبراطورية العثمانية ستنهار في الحرب، وسيكون علينا أن نختار بين عدة احتمالات بالنسبة لمستقبل فلسطين، فالأول إذا تركنا الأمر دون تدخل فسوف تضم فرنسا فلسطين إلى الشام مما يهدد

المصالح البريطانية، والثاني أن تعود فلسطين لتركيا، أما الثالث فهو أن توضع تحت حماية عدد من الدول الأوربية بما فيها ألمانيا التي ستجعل فلسطين محمية ألمانية، ولن يبقى سوى إعطاء فلسطين لليهود بشرط أن تصبح الحماية البريطانية أولا. (عيسى، ص. د ت: 8)

وأكد لويد جورج أن أسبابا دبلوماسية وعسكرية أدت إلى إصدار الوعد كضرورة عسكرية، واعتبره البعض قرار استراتيجي أملته ظروف الحرب، (خلة، ك. 1982: 59) فالمحرك الأساسي للوعد مصلحة بريطانيا ليست المؤقتة فقط وإنما بعيدة المدى، وكتبت الصحافة البريطانية: "لا يوجد جيش آخر يستطيع أن يقوم بهذه الخدمات لنا غير اليهود أنفسهم، ولدينا في الحركة الصهيونية القوة المحركة التي ستجعل امتداد الامبراطورية البريطانية إلى فلسطين مصدر كبرياء، وركن قوة"، وأضافت "لقد أوضحت المصالح منذ وقت طويل ضرورة قيام دولة حاجزة بين مصر وحكومة تركية معادية، والصهيونية تقدم الحل". (خلة، ك. 1982: 59)

إن كل هذه المعطيات جعلت بريطانيا تفكر في مستقبل الوطن العربي بعد الحرب، وتسعى للتفاهم مع حلفائها ومنافسيها حول اقتسامه لذلك دخلت في عمليات واتفاقيات سرية لضمان مصالحها مع كل من الحركة العربية، المطامع الفرنسية، والحركة الصهيونية، ومن هنا كانت مراسلات الحسين-مكماهون سنتي 1915-1916، واتفاقية سايكس بيكو سنة 1916، ووعد بلفور سنة 1917. (خلة، ك. 1982: 41)

فالمصالح الاستراتيجية والظروف الدولية جعلت بريطانيا تسير في ثلاثة اتجاهات متعارضة وهي: (صالح، م. 2012: 35)

- الشريف حسين أمير الحجاز لدفعه لإعلان الثورة ضد العثمانيين مقابل الاستقلال بمعظم المناطق العربية في جزيرة العرب والشام والعراق، فأعلن الثورة في 10 جوان 1916.
- التفاوض مع فرنسا لتقسيم البلاد العربية في اتفاقية سايكس-بيكو ماي 1916، حيث تأخذ بريطانيا معظم العراق وشرق الأردن ومنطقة حيفا، أما لبنان وسوريا فتوضعان تحت الاستعمار الفرنسي، وتم تحديد فلسطين كمنطقة دولية تحت الوصاية الأوربية. (خلة، ك. 1982: 48)
- التفاوض مع المنظمة الصهيونية العالمية حول مستقبل فلسطين لحاجة بريطانيا لاستخدام النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية لدفعها للمشاركة في الحرب إلى جانبها.

ولتنفيذ خطتها الاستعمارية كلفت بريطانيا هنري مكماهون بمشاغلة وخديعة الشريف حسين، ثم بدأت تجس نبض حلفائها لتفادي التضارب في الحقوق، فبدأت المفاوضات بين مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو. (عيسى، ص. د ت: 31-32) وقد تمكنت بريطانيا بمقتضى اتفاقية سايكس-بيكو المنعقدة في ماي عام 1916 من إبعاد روسيا عن فلسطين وباقي الشرق العربي بالتسليم لها بأطماعها في الدردنيل والبسفور والأجزاء الشمالية من الدولة العثمانية، أما بالنسبة لفرنسا فإن بريطانيا فشلت في إخراج

فلسطين من دائرة الأطماع الفرنسية فبالإضافة إلى حصول فرنسا على منطقة الجليل الأعلى من فلسطين مقابل منح بريطانيا مينائي حيفا وعكا فإن الأجزاء الباقية من فلسطين اتفق على وضعها تحت إدارة دولية يكون لفرنسا دور أساسي في تحديد ملامحها. (محمود، أ. 1984: 193)

وفي سنة 1916 تشكلت وزارة بريطانية جديدة يرأسها لويد جورج الذي كان متخوفا من الأطماع الفرنسية أكثر من التحالف الألماني العثماني، فركز في استراتيجيته السياسية البريطانية على مبدأ عدم السماح لأية قوة أخرى باحتلال فلسطين وتهديد النفوذ البريطاني في مصر وقناة السويس، (محمود، أ. 1984: 193) لذلك رفض فكرة وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية لأنها تعطي للفرنسيين فرصة للتدخل في شؤونها، وبالتالي تخلق خطرا على قناة السويس. (عيسى، ص. د ت: 97)

وازداد لويد جورج وباقي الساسة البريطانيين اقتناعا بأن إصدار رسمي لليهود بإنشاء كيان سياسي لهم في فلسطين يحقق لبريطانيا فوائد جمة. فبالنسبة لفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وروسيا فإن باستطاعة الحركة الصهيونية التكفل بها جميعا بممارسة الضغوط عليها لتنتزع منها تأييدها لمثل هذا الوعد البريطاني، وحينما يتم الحصول على مثل هذا التأييد، فإنه يسهل على بريطانيا بعد احتلالها فلسطين وضمانها ولاء الحركة الصهيونية أن تستأثر دون غيرها من الدول الأخرى بفلسطين لتصبح منطقة نفوذ تابعة لها. (محمود، أ. 1984: 195-196)

خاتمة:

يتضح مما سبق أن فكرة الاستيطان اليهودي وتطورها كانت بمثابة امتداد لسياسة التوسع الإمبريالي الغربي لتصبح بعد نضوجها فيما بعد أداة من أدواته في الشرق العربي تؤمّن مصالحه وتحرس مواقعه، وكان وعد بلفور يجسّد رغبة بريطانيا في السيطرة على فلسطين لحماية مركزها في مصر، وتأمين طرق مواصلاتها البرية في الشرق، وكذا رغبتها في الإفادة من وجود اليهود للحفاظ على مصالح الامبراطورية، متجاهلة وعودها للعرب التي كانت جزءا من المراوغة الاستعمارية حيث ردّ هنري مكماهون –الذي وعد الشريف حسين بدولة عربية مستقلة- على تساؤل أحد الساسة العرب حول إعطاء بريطانيا ثلاثة وعود متناقضة في ثلاثة أعوام بأن الامبراطورية البريطانية كانت في خطر، وأنه لم يكن مستعدا لأن يقطع على نفسه وعدا ينتهي بأن تخسر بريطانيا أرضا كسبتها بالقتال، ولولا أنهم فعلوا ما فعلوه لقضى عليهم حلفاؤهم الفرنسيون، إذا لم يهزمهم أعداؤهم الأتراك والألمان.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم

2- العقاد، عباس محمود (2012). الصهيونية العالمية، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

3- المسيري، عبد الوهاب(1982). الأيديولوجية الصهيونية، ج 1، الكويت: عالم المعرفة.

4- أوزدمير، حسين (2013). فلسطين في العهد العثماني وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني، ط 1. مصر: دار النيل للطباعة والنشر.

5- دروزة، محمد عزة (1959). مأساة فلسطين، سوريا: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر.

6- حلاق، حسان علي (1978). موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، بيروت: دار البحيري.

7- ياغي، إسماعيل أحمد ومحمود، شاكر (1995). تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر 1492-1980، الجناح الأسيوي، ج 1، الرياض: دار المريخ للنشر.

8- محمود، أمين عبد الله (1984). مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، الكويت: عالم المعرفة.

9- صالح، محسن محمد(2012). القضية الفلسطينية خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات.

10- عبد الحميد الثاني (1979) مذكراتي السياسية 1891-1908، بيروت: مؤسسة الرسالة.

11- عيسى، صلاح (د ت). صك المؤامرة "وعد بلفور".

12- خلة، كامل محمود (1982). فلسطين والانتداب البريطاني 1922-1939، ط 2. طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان.